القوى السابحة

للأستاذ عبد الواحد يحيى

عند ما بينا العناصر المختلفة التى تتضافر فى إحداث تلك الظواهر التي ينسبها الروحانيون المحدثون الى ما أسموه « بالأرواح » ، اشرنا بصفة خاصة الى واحد منها يلعب دوراً خطيرا ، هو عنصر القوى اللطيفة التى أسماها « الطاو ـ صى » الصينيون « بالقوة السابحة » (راجع ج ٣ ص٣٥٨ ـ مجلة المعرفة) . ولقد يكون من المهم الآن أن نعطى تفسيراً تكميلياً لهذه النقطة حتى نتجنب الخلط الذى يقع فيه بسهولة أولئك الذين لهم دراية بالمعارف الغربية الحديثة أكثر مما لهم من علوم الشرق القديمة وهم لسوء الحظ كثيرون فى أيامنا هذه .

لقد نبهنا الى أن القوى التي نعنيها هنا ـ لكونها ذات طبيعة نفسية ـ تكون بالضرورة ألطف من قوى العالم الحسى أو الجسمى ، ولهذا فينبغى أن لايخلط بينها حتي ولو تشابهت نتائجها مع نتائج القوى الحسية بعض الشبه . مثل هذا التشابه يوجد فى الواقع على وجه الخصوص مع نتائج الكهرباء ، ولكن هذا التشابه يفسره مايوجد من تطابق بين سائر القوانين التى تسير كل العوالم وكل الحالات ، ذلك التطابق الذى بواسطته يتحقق التناسق والانسجام فى درجات الوجود كلها .

ولهذه القوى السابحة أنواع متباينة تمام التباين . ونحن نجد فى العالم الحسي أنواعاً عديدة من القوى ، ولكننا نجد فى العالم النفسى أن الامور أكثر تعقيداً مما هى هنالك ، ولهذا فالميدان النفسى أكثر امتدادا من الميدان الجسمى وأقل ضيقاً منه الى حد كبير ، وينـدرج تحت هذه التسمية العامة « القوى السابحة » كل القوى الخارجة عن الافراد ، وأعنى بذلك كل القوى التى تفعل وتؤثر فى الوسط الكونى من غير أن تدخل فى تركيب أى كائن معين وفى بعض الحالات تكون هذه القوى بذاتها ، وفى حالات أخرى تكون صادرة عن عناصر نفسية منحلة كانت تخص فيما سبق كائنات حية ومن بينها الانسان خاصة كما أوضحنا ذلك فى المقال السابق .

على أن المقصود فى كل الحالات إنما هو صنف معين من القوى الطبيعية التي لها قوانينها كما لغيرها من القوى ، والتى لاتشذ عن تلك القوانين كما لايشذ غيرها من القوى عن قوانينه ، وإذا لاح أن فعلها إنما يجرى غالبا اتفاقا وصدفة ومن غير نظام ، فما ذلك إلا لجهلنا بقوانينها

ويكفى ان نلقى نظرة الى نتائج صاعقة مثلا، تلك النتائج التى ليست أقل غرابة من هذه القوى لنعلم أنه لا يوجد البتة شيء فى هذا العالم لا يجرى وفق قانون . وهذه القوى ـ كغيرها ـ يمكن أن يجمعها و يستخدمها أولئك الذين يعرفون قوانينها ، وهنا يجب علينا أن نميز بين حالتين : تدبير هذه القوى والتصرف فيها على الوجه المتقدم ، يمكن أن يكون بوساطة كائنات تنتسب لنفس العالم اللطيف كالكائنات المعروفة بالجن ، أو بوساطة أناس أحياء يوجد لديهم حالات مطابقة لذلك العالم اللطيف مما يؤهلهم للتأثير فيه . وهؤلاء الذين يتصرفون فى هذه القوى بأرادتهم ـ سواء أكانوا من الانس أو من الجن ـ يلبسون تلك القوى نوعا من الشخصية المصطنعة المؤقتة ، وتلك الشخصية فى حقيقة الأمر ليست إلا انعكاسا لشخصيتهم الذاتية وطيفاً لها . ولكنه يحدث أحياناً ايضا أن هذه القوى عينها يمكن أن تجتذب وتدبر من غير شعور بوساطة كائنات تجهل قوانينها ، ولكنها هيئت وأعدت لذلك بما لها من خصائص شاذة فى طبائعها ، ومثال تلك الكائنات ما اتفق اليوم على تسميتهم « بالوسطاء » وهؤلاء أيضا يعيرون القوى التي ينقلون بها شخصية ظاهرية ، ولكنهم يخسرون بازاء ذلك سلامة حالاتهم النفسية التى يعتريها من تلك القوى اضطراب قد يصل الى حد الانحلال الجزئى فى الشخصية .

ولنا على هذا النوع من الاستحواز اللاشعورى ، أو اللاإرادى الذى يقع فيه الكائن تحت رحمة القوى الخارجية بدلا من تسلطه عليها ـ ملاحظة هامة : هى أن جاذبية هذا النوع يمكن أن تؤثر فى هذه القوى ليس فقط بوساطة اناس (وسطاء) كما تقدم ذكره ، ولكنه يحدث أيضا بوساطة كائنات حية اخرى ، بل وحتى بوساطة أشياء غير حية ، أو بوساطة أمكنة معينة تتركز فيها تلك القوى فتنتج بعض الظواهر الشاذة . هذه الكائنات والأشياء إذا جاز لنا أن نستعمل اصطلاحا يبرره التشابه بقوانين القوى الطبيعية ـ إنما تقوم مقام « الأجهزة المكثفة » . وهذا التكثيف قد يتم من تلقاء نفسه . ومن جهة أخرى يستطيع الذين يعرفون قوانين هذه القوى اللطيفة أن يركزوها ايضا بطرق خاصة ، وذلك بالاستعانة بمواد أو أشياء معينة طبيعتها توافق النتائج المرغوب فى تحصيلها .

وعلى عكس ما تقدم يمكن لهؤلاء أيضا أن يحلوا تكاثف تلك القوى اللطيفة التى كونوها قصدا بأنفسهم أو بواسطة غيرهم ، أو التى تكونت بذاتها من غير تدخل . ولهذ التحليل لم يجهل الأنسان ـ فى أى عصر من العصور ـ ما للأطراف المعدنية المدببة من منفعة فى تحليل أو تفريع القوى المكثفة وفى هذا مشابهة شديدة بتفريع الظواهر الكهربائية . وإنه ليحدث

إذا ما لمس الأنسان بطرف معدنى مدبب نفس النقطة التى يوجد فيها مايمكن أن يسمى (عقدة التكاثف) ، فانه يصدر عن ذلك شراراً . ولو أن هذا التكشيف قام به ساحر ـ كما يحدث كثيرا ـ فانه يجوز أن يجرح أو يقتل برد فعل الضربة مهما كان موضعه . ومثل هذه الظواهر شوهدت فى كل زمان وفى كل مكان .

وعمليتا التكشيف والتحليل المشار اليهما ، لهما نظائر فى حالات تستخدم فيها قوى من نوع آخر كما فى علم الكيمياء ، لأنهما إنما ترجعان الى قوانين كلية شاملة كانت معروفة فى العلم القديم وخاصة فى الشرق ، ولكنها مجهولة عند الحديثين بتاتا على مايظهر . وفى الفرجة التي تنحصر بين هذين الطرفين (التكشيف والتحليل) يستطيع الشخص الذي يدبر هذه القوى اللطيفة أن يلبسها نوعا من الشعور مما يجعل لها شخصية ظاهرية تخدع الذين يواجهون تلك القوى المتكثفة فيظنون أنهم أمام كائنات حقيقية .

و إمكان تكشيف تلك القوى اللطيفة فى أشياء تختلف طبائعها تمام الاختلاف ، ثم الحصول على نتائج ذات مظهر شاذ غير عادى من ذلك التكشيف ـ إنما يميط اللثام عن خطأ الرأى الذى يعتنقه المحدثون والذى يذهب الى أن « الوسيط » لابد أن يكون انساناً . وينبغى أن ننبه هنا إلى أنه قبل الروحانية الحديثة كان استخدام الأنسان كمكشف أمراً قاصرا على أحط أنواع السحرة ، لما يحيق بالوسيط من مخاطر مهلكه من جراء ذلك الاستخدام .

ونضيف الى ماتقدم أنه بخلاف ماسبق من وسائل التكشيف توجد وسيلة أخرى مخالفة لها تماما ، لا تقوم على مبدأ تكشيف القوى اللطيفة فى كائنات أو أشياء خارجة عن الشخص الذى يقوم بهذا العمل ، ولكنها تقوم على مبدأ تكشيفها فى نفسه ، وذلك كيما يستخدمها وفقا لأرادته ، وكيما يوجد تحت تصرفه إمكان مستديم لانتاج ظواهر معينة واستعمال هذه الطريقة أمر مراعى فى الهند على وجه الخصوص ، ويحسن بنا أن نشير هنا الى أن هؤلاء الذين يتوفرون على الحصول على نتائج غيرعادية بهذه الطريقة أو بغيرها مما سلف ذكره ـ ليسوا أهلا لما يسبغه الناس عليهم من جدارة وتفوق ، و إنما هم فى الحقيقة أناس وقف نموهم الباطنى فى درجة معينة ـ لسبب من الأسباب ـ فلم يستطيعوا أن يسيروا الى أبعد منها ، فنتج عن ذلك أنهم توفروا على بذل نشاطهم فى أشياء من نوع أعلى .

على أن المعرفة التامة الدقيقة بتلك القوانين التي تسمح للانسان بأن يتصرف فى القوى اللطيفة إنما كانت على الدوام قاصرة على عدد يسير من الناس ، وذلك لما ينتج من المضار إذا ماذاعت بين من لهم مقاصد سيئة . ويوجد فى الصين كتاب منتشر جداً عن «القوى السابحة»

ولكنه لا يتناول غير تطبيق ضيق لتلك القوى على نشأة الأمراض وكيفية علاجها ، وما عدا هذا لا يكون فى الحقيقة غير موضوع دراسة شفوية محضة ، ومع ذلك فان الذين يعرفون قوانين القوى السابحة معرفة تامة يكتفون عادة بتلك المعرفة ويزهدون تمام الزهد فى تطبيقها واستخدامها عمليا . وهم ينكرون على أنفسهم أن يثيروا أى ظاهرة من ظواهر تلك القوى بقصد إدهاش الناس أو بقصد إشباع نزعة حب الاستطلاع عندهم . واذا تحتم عليهم مع ذلك أن يحدثوا بعض الظواهر ـ لأسباب مباينة لما تقدم ذكره من الاسباب وفى ظروف خاصة ـ فانهم يفعلون ذلك بوسائل مخالفة تماما لما هو معروف ، ويستعملون فيه قوى من نوع آخر ولو تشابهت النتائج الظاهرة .

وإذا وجد هناك تشابه بين القوى الحسية كالكهرباء ، وبين القوى اللطيفة أو النفسية ، فأنه يوجد ايضا مثل هذا التشابه بين هذه الاخيرة وبين القوى الروحية التى يمكن ـ مثلا ـ أن تتركز بدورها فى امكنة معينة او فى اشياء معينه ايضا . ويمكن أن تصدر نتائج تتشابه فى الظاهر عن تلك القوى المتباينة فى طبائعها . وهذه المشابهات الظاهرية هى مصدر الخلط والانخداع الكثيرين اللذين لا يمكن أن يتحاشاها الذين يتوفرون على تحقيق تلك الظواهر : فالسحرة يمكنهم ـ ولو الى حد محدود ـ أن يقلدوا بعض كرامات الاولياء ، ومع هذا التشابه الظاهرى فى النتائج ، فانه ليس يوجد شىء مشترك بين مصادرها المتباينة فيما بينها تماما . وليس يدخل فى موضوعنا هذا التكلم عن فعل هذه القوى الروحية ، ولكننا مما تقدم نستطيع على أقل تقدير أن نستمد النتيجة المهمة وهي : إن الظواهر بمفردها لا تقوم دليلا ولا تنهض حجة على شىء من الأشياء ، وإنها لا تستطيع أن تثبت صحة نظرية من النظريات أيا كانت ، إذ إن نفس الظواهر يجب أحيانا أن تفسر بصور تختلف باختلاف الاحوال والظروف ، وإنه ليندر أن لا يوجد لظواهر معينة إلا تفسير واحد ممكن .

ونخلص من هذا كله الى أن العلم الحقيقى لا يمكن أن يتكون إلا اذا بدأ من فوق ، أعنى من « مبادىء عالية » نطبقها على الوقائع التى ليست فى الحقيقة إلا نتائج لتلك المبادىء تقرب أو تبعد عنها . وهذا نقيض مايفعله العلم الغربى الحديث تماما ، ذلك العلم الذى يريد أن يبدأ من الوقائع ليستخرج منها تفسيرا شاملا كما لو كان الأكثر يمكن أن يستخرج من الأقل وكما لو كان الأوضع يتضمن الأرفع ، وكما لو كانت المادة يمكن أن تكون معياراً للروح وحداً لها ؟

عبد الواحد يحيى